

الخيالات الباطلة

والأوهام الفاسدة

للاستاذ محمد أبو بكر إبراهيم

المفتش بوزارة المعارف العمومية

حينما تطفئ الحياة بأمواجه العنيفة، وتشد بتاراتها الجارفة، يحاول المرء الهروب منها، والتخلص من متاعها وآلامها، فيجلس أحيانا جلسة هادئة في مكان منعزل بعيد عن الضوضاء والجلبة، ويختلس جانبا من أوقات فراغه ليناجى نفسه بأشهى الأحاديث وأعذب الآمال والأحلام، وليرضى لذته العقلية بالكوف على ألوان من التمنيات، وأنواع من الآمال، فتراه تحسبه صامتا وهو في الحقيقة ناطق متكلم، وتظنه ساكنا، وهو في الواقع متحرك وصدره جياش بالخواطر المتواردة، والأفكار المتوالت.

ينغمض عينه إغماضة خفيفة حتى يداعبها الكرى في رفق ولطف، ثم يسترسل في تفكيراته الحرة التي لا يحدّها حد، ولا يقيدّها قيد، ويتجاذى في خيالاته الطليقة التي لا تخضع لإرادة، ولا تستمع إلى قانون أو نظام. فتجىء الفكرة تتبعها الفكرة، والخاطرة تسابقها الخاطرة، ويؤلف الخيال من كل ذلك صورا براقة لمساءة يتكوّن من مجموعها منظر ساحر عجيب يجمع بين عوالم الماضي ولذات الحاضر والمستقبل، فلا يتمالك الإنسان أن يتأملها تأمل العاشق الولهان، وأن ينظر إليها بعين خياله ليتناسى بها الحقيقة المرة والماضي المؤلم، ويضع منها تصميما لمستقبل خير من مستقبله، وحياة أهدى من حياته. ويقنع بهذه الصور الخيالية وإن كانت أحلاما بعيدة كل البعد عن الواقع الملموس، ويكتفى بهذه الروائع الذهنية وإن كانت من نسجه ومن عمل خياله ولا تتطابق مع الحياة الواقعية.

وأكثر ما يكون هذا النوع من الأحلام عند ما يصطدم المرء بعذرة الواقع ويحد أنها لا تنكسر ولا تلين، ويوجد الدنيا قاسية جافة لا رحمة فيها ولا شفقة، ويحد كل شيء في الوجود عابسا صاخبا، فيفر من كل أولئك فرار الجبان المهزوم متجسسا إلى هذه الأحلام اللذيذة التي تسرى عنه همومه وكروبه. وتنسب آلام الحياة وما فيها. وما أشبه هذه الأحلام بالندمة المسكوبة يرسلها الحزين فينسى حزنه. والمرضى فينسى مرضه، والفقير فينسى.

فمن رزى في ماله بخسارة فادحة، وضاق به سبل العيش وجد في طبيعة نفسه ما يسليه بعض التسلية، وينسب له ولو في فترة قصيرة آلام تكبته، وحرارة خسارته: تأتيه "أحلام اليقظة" فينشط خياله نشاطا عظيما ويرى رواية أشبه ما يكون برواية الخيالة "السينما" تهافت فيها الصور الواضحة عن الكنوز والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخليل المسومة والأنعام والحراث. وإنه بهذه الصور الخيالية يخلق في أجواء بعيدة عن أجواء

الحياة ، ويسبح في عالم لا يرتبط بعالم الحقيقة . ويطيب له أن يحيا حياة خيالية يخلقها كما يشاء ، ويصورها كما يريد ويستهي . هذه الأمانى للحلوة المسبولة التي يستطيعها المرء في أيام محنته وبلائه ليتخلص بها من عذابه وشقائه ، ويستمرسل في التفكير فيها استرسالا غير مقطوع يسمى أحلام اليقظة . وبها يبني قصورا في الهواء ، ويتخيل أن السراب هو الماء ، ويصور لنفسه حياة طيبة مهيئة بالطرائف واللطائف ويعيش في ديار لا نظير لها ولا مثل ، فيجد اللذة الخيالية غالية على نفسه ، تسليه في يومه وفي غده ، وتنسيه ما كان من ظلام أمس .

وهذه الأحلام مقبولة مستساغة ما دام المرء لم يستمرسل فيها هذا الاسترسال الذي يقصيه بعيد عن الواقع ، ذلك لأن التماهى فيه خطأ أى خطأ . يجعل صاحبه أليف الراحة والكسل ، ضعيف الإرادة والفكر ، قليل العمل . وهذا مرض نفسانى تجب معالجته قبل أن يستفحل دأؤه ، ويستعصى برؤه وشفاؤه ، ويجعل صاحبه حليف النوم والأمانى .

ذلك لأن الشخص الذى تغلب عليه نزعة الأمانى الكاذبة . والأحلام الباطلة . يتجه اتجاها طائشا . ويطمع في غير مطمع ، ويرعى في صحراء مقفرة لا تنبت شيئا فلا ينال ما ربا ، ولا يحقق عرضا ، ولا يعمل عملا وهذا هو لمرض بعينه .

وكذلك من الأمراض النفسية : الأوهام الباطلة الخيالية التي تنشأ من الرعب والخوف الشديد ، ومن الخذر وتوقع الخطر ، ومن لقلق المستمر ، ومن التشاؤم في الحياة . فهذه آفات تدخل على القلوب كما تدخل السموم في الدماء فتسدها وتعطل وظائفها ، وتجعل العقل في اضطراب وفوضى ، وتولد في النفس الأوهام المزججة . هذه الأوهام تصور الحياة بصورة بشعة ، فيتخيل المرء أن الأرض حريثة ، وأن السماء كذبية ، والفضاء ضيق ، وأن النور ظلام ، وأن الحياة موت . ويتوهم الباطل حقا ، والحق باطلا . فإن قام نهي تناقل ، وإن مشى ففي اضطراب وضعف ، وإن جرى ففي غير قوة وبدون رغبة . صوته ضعيف خافت ، ورأسه مائل مائو ، يؤثر أن يجلس منفردا غارقا في نفسه مهما يكن حمله ثقيلا ، وهمه طويلا . وقد ياتى هذا المسكين من ذوى قرابته ورؤسائه وجيرانه غلظة وقسوة وشدة وجفوة ، فيزداد مرضه النفسي ويتوهم أن الكون بما فيه يناوئه ويعاديه . ويتخيل أن العالم كله يتربص به الدوائر . ومن ثم تشد مخاوفه ، ويزداد جبته ، ويسوء تفكيره ، وتظلم الدنيا أمام ناظره . وهذا شقاء ليس بعده شقاء . فيقلب متشائما لا يثق بأحد ، وموسوسا لا يطمئن إلى أحد ثم ينقطع عن مجتمعه انقطاع اليأس المحسور . وقد نهد نشاطه ، وفترت همته ، وضعفت صحته ، واضطربت أعصابه وساءت حاله ، وصار كالريشة تلعب بها الريح وتسيرها كيفما تريد . فلا يحسن قولاً ولا يتقن عملاً ؛ لأنه شارد الفكر مسلوب القوادى وأى مرض نفسي أعظم خطراً وأبلغ ضرراً من هذا المرض الذى يؤدى إلى الضرر الخلقى والنقص العقلى ، ويقتل الحيوية في الجسم ، وما سببه في الأصل 'ال'الخيال الوهمي' .

فإن كانت أحلام اليقظة مدعاة إلى التناول بكل شيء في الحياة فالركون إليها باستمرار يجعل المرء نائما حالما ذاهلا عما في الوجود ، ولا يفيق من نومه وذهو له إلا حينما تتبدد أحلامه أمام الحقيقة الواقعة كما تتبدد السحابة أمام حرارة الشمس المحرقة ، فتترك وراءها

حسرات لازمة باقية . وكذلك الركون الى الأوهام يؤدي الى التشاؤم بسبب الهواجس المربعة التي تحتل القلب فتذيبه فرقا ، وتحتل النفس فتملأ فراغها بؤسا وشؤما . وكلتا الحالتين تجعلان المرء غير صالح للحياة التي تتطلب خيالا مضبوطا ، وفكرا منظما ، وإرادة قوية ، واعترافا بالواقع ، وصبرا لما يأتي به الزمان من أحداث وكوارث : فالنفاؤل الزائد عن حده شر لأنه يغري الإنسان بأودية فيحاء خضراء لا وجود لها ، والتشاؤم شر كذلك لأنه يلقي به في أودية ضيقة مقفلة لا وجود لها الا في الخيال الوهمي . وخير للرجل أن يلتزم الحد الأوسط فلا يتقذى في نفاؤه ، ولا في تشاؤمه ، وأن يكون عمليا متصلا بالحياة يفكر جديا فيما يمكن تحقيقه والوصول اليه ليكون أمامه هدف يسعى له ، وغرض يرمى الى إصابته . وكلما وصل الى غاية قريبة اتخذ سبيله الى غاية أخرى حتى 'ذا' ما أدركها امتد أملة الى غاية بعيدة وغاية أبعد وهكذا ما دام حيا معافى سليما . فأمامه ميدان العمل فسيح الأرجاء ، وهو لا يزال يدأب مستمرا في الكد والكسح . وكلما قارب مرحلة وجأ أمامه مرحلة أخرى .

إنه بهذا أسير الحازم يخطط لنفسه مثالا أعلى يعمل على تحقيقه . وما المثل الأعلى إلا الصورة الخيالية التي تحتج في بنوعها أو القرب منها الى الدأب والمثيرة والتفكير في شتى الأسباب ومختلف الأساليب وتسديد الخطوات نحو الأهداف المتووعة التي توصل اليه ، فلا تتشعب عليه المسالك ولا تختلف به الطرق كما تشعبت على الخائنين والواهمين .

وإن الجهل بأسرار الطبيعة وبحقائق الأشياء من العوامل المؤدية الى الخيالات الفاسدة والأوهام الباطلة ، فيتوهم ادرء الظواهر الكونية توها باطلا ، وينسرها تفسيرا لا يتفق مع الواقع ، ويكون لنفسه معتقدات فيها لا نصيب لها من الحق : كظواهر الرعد والبرق والسحاب والمطر والظلام والدورة الفلكية ، وهذه المظاهر لم يفهمها الإنسان القديم ولم يدرك نشأتها نخافها ، وتخيل فيها ما تخيل ، ونسب اليه ما نسب ، واخترع لها الخرافات والأساطير والأباطيل ، نتيجة لسوء الفهم والتأويل ، ومن الغريب الطريف أن خيال الإنسان يخترع الأساطير اختراعا ثم يأتي من بعده قوم يؤمنون بها ، ويعتقدون فيها كأنما هي من الحقائق المسلم بها . ولكن العلم الحديث قد كشف للقناع عن كثير من أسرار الطبيعة فأدركها الإنسان إدراكا صحيحا مبنيا على التفكير والتعقل ، فطلت الخرافات التي كانت تسيطر على العالم بسبب الخيالات الفاسدة .

فالوهم والخوف والجهل وبساطة العقل قد دفعت الفهم في أيام الجهالة الأولى أن يعبدوا الشجر والمدر والجر والنكواب والبحار ، لأنهم توهموا أن فيها أرواحا وآفة ، ونسجوا لها الأساطير . وإن الجهالة تدفعهم الآن الى تخيل الأباطيل ، واعتقاد أنها صحيحة صادقة . وويل للجهلاء ما

محمد أبو بكر إبراهيم

المفتش بوزارة المعارف